المحاضرة الأولى :

الأوضاع الاجتماعية في الجزائر خلال العهد العثماني

مقـــــــــدمة

I. **الوضع العام في الجزائر خلال الحكم العثماني ١٥١٨-١٨٣٠م**

II. **التركيبة السكانية في الجزائر خلال الحكم العثماني**

III. **علاقة السلطة الحاكمة بالسكان .**

الأوضاع الاجتماعية للجزائر خلال الحكم العثماني ١٥١٨-١٨٣٠م

مقـــــدمة

لقد ارتبط اسم "الجزائر" بالدولة العثمانية سنة ١٥٤٥ وهي السنة التي أصبحت فيها أول إيالة عثمانية في شمال إفريقيا، حيث لعب العثمانيين دورا هاما في مساعدة الجزائريين وإنقاذهم من نفس المصير الذي لحق بمسلمي الأندلس، لقد ساهم وجود العثمانيين في إدخال تغيرات اجتماعية وسياسية وحتى اقتصادية على الحياة الاجتماعية للجزائريين واثروا بدرجات متفاوتة في مختلف مجالات الحياة.

I. الوضع العام في الجزائر خلال الحكم العثماني ١٥١٨-١٨٣٠م

كانت الجزائر قبل ١٥٠٠م مكونة من جزر متفرقة يحكمها الرعاة، وهي عرضة لاعتداءات الأوربية وبعد نزوح العرب المسلحين من الأندلس، ظهر الأخوان بربروس واتخذوا من الجزائر قاعدة لهم لصد الاعتداءات المحتملة، وبعد استشهاد عروج ١٥١٨م تسلم أخوه خير الدين الحكم وقام بالدخول تحت طاعة السلطان

العثماني سليم الأول لمساعدته، وبذلك انضمت الجزائر تحت الحكم العثماني ونظم خير الدين الجزائر تنظيما جيدا استمر حتى سقوط العاصمة بيد الفرنسيين سنة ١٨٣٠ إلا أن بعض الإخفاقات قد واجهت حكام الجزائر بعد وفاته تمثلت في عدم الاهتمام بالجوانب الاجتماعية التي منها الأوضاع الثقافية والصحية الأمر الذي أدى إلى تفاقم أزمات الشعب الجزائري من خلال تكاثر الأمراض وتدهور الاقتصاد والتعليم[i].

لقد كانت الجزائر في ظل الحكم العثماني منطقة ذات تنوع اجتماعي وذلك لاختلاف السكان فيها حيث كانت تمثل إحدى المحطات التي توافدت عليها الأجناس من جهات مختلفة ما بين ١٥١٩ و ١٨٣٠م ولم يكن تنظيم المجتمع الجزائري أثناء العهد العثماني تنظيما طبقيا على شاكلة ما عرفته أوربا خلال العصور الوسطى وإن كانت هناك فئات اجتماعية حظيت بامتيازات أدت إلى تقسيم المجتمع إلى فئات اجتماعية متباينة حسب خصوصية ومكان إقامة كل فئة بحيث كل فئة، بحيث أن لكل منها خصائصها ومميزاتها[ii].

II. التركيبة السكانية في الجزائر خلال الحكم العثماني

باعتبار أن الأتراك العثمانيين دخلوا إلى الجزائر وأحدثوا فيها العديد من التغيرات فبطبيعة الحال فغن الميدان الاجتماعي سيعيش تغير وتظهر في وسطه العديد من الفئات الاجتماعية.

أولا : سكان المدن

حيث كان يقطن في المدن العديد من الفئات وهي كالآتي:

١- جماعة الأتراك والكراغلة

أ- فئة الأتراك:

يصنف الأتراك إلى صنفين هما الأتراك الأصليون الذين يأتون إلى الجزائر من الأناضول وأتراك العقيدة وهم المسيحيون المرتدون عن دينهم الذين اعتنقوا الإسلام وهم الذين يعرفون باسم الأعلاج[iii]، حيث تشكلت النواة الأولى الأتراك العثمانيين في الجزائر من حيث الانكشارية ومن المتطوعين الذين أرسلهم السلطان العثماني سليم الأول إلى خير الدين في أعقاب انضمام الجزائر تحت لوائه[iv]، ولقد مكنهم النظام المالي الذي يخضع له اليولداش من الوصول إلى أعلى المراتب فكان منهم الباشوات والوزراء والبايات[v]، فقد كانت سلطة البلاد بيدهم ولهم الأولوية في كل شيء وقد استطاع العديد منهم تجميع ثروات طائلة ولا سيما في سهل متيجة[vi].

كان الأتراك يستقرون في الحصون وثكنات مدينة الجزائر أو يتوزعون على حاميات المدن ومن أهم هذه الحصون التي كان يقيم بها الجنود الأتراك حصن القصبة وبرج النجمة والبرج الجديد وبطارية الباب الجديد ومن أسهم الثكنات ثكنة الخراطين واكرون واسطة موسى والدروج وباب الجزيرة، أما خارج مدينة الجزائر فتتوزع العناصر التركية على الحاميات التي بلغ عددها خمسة عشر حامية[vii].

– تميز الأتراك بإتباعهم لتقاليد تركية والافتخار بأعمالهم العسكرية والاعتزاز بلغتهم الأصلية والعزوف عن خدمة الأرض كما كانوا ينظرون إلى الجزائريين نظرة يشوبها الاحتقار وينعتونهم بأنهم مجموعة من العصاة أو الخارجين عن القانون فلا يفيدون أحد منهم في الحامية[viii].

ب– فئة الكراغلة:

مجموعة سكانية تحتل المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي الجزائري خلال العهد العثماني وقد بلغ عددهم في مدينة الجزائر في ناهية القرن ١٨م حوالي ٦٠٠٠ نسمة[ix]، وظهرت لأول مرة في المدن التي تقيم بها الحاميات العثمانية وفي مقدمتها مدينة الجزائر[x]، وبهذا أصبحوا يشكلون نسبة حكومة خاصة بهم ويتقاسمون المدينة

مع طبقة الحضر وأصبح لهم ديوان خاص بهم وصلاحيات معترف بها، لذا زادت صلتهم بالأتراك وعلاقتهم الخاصة بالأهالي وكان لهم نشاط تجاري خاص بهم فاشتغلوا في بعض المهن واستثمروا الأراضي الزراعية وأيضا الوظائف الإدارية متوسطة الأهمية[xi].

– حاول هؤلاء بحكم الميلاد واللغة والانتماء العائلي إلى تبوء مكانة صغيرة في المجتمع والحصول على امتيازات ممنوحة لآبائهم هذا أدى إلى تخوف الأتراك من تكاثر الكراغلة الذين أصبحوا مع نهاية القرن ١٦م يقدرون بنصف عدد الأتراك خاصة وأنهم أصبحوا يتقلدون مناصب هامة في الدولة والحكم ونيل الامتيازات هذا دفع بالأتراك يحترزون منهم خاصة عند توليهم الوظائف السامية في الجيش والإدارة لذا ساءت العلاقة بين الطرفين سنة ١٩٦م فدفع هذا الأمر بالداي شعبان إلى انتهاج سياسة الترضية فسمح لهم حتى الانتساب الأوجاق[xii]، وفي سنة ١٨١٣م استغلوا خطة الداي الحاج علي باشا التي كانت تهدف للقضاء عليهم ووقفوا إلى جانب الداي علي خوجة من أجل إخماد تمرد الانكشارية عام ١٨١٧م[xiii].

وفي أواخر العهد العثماني ازدادت قوة الكراغلة لكنهم اكتفوا بالحصول على الامتيازات فلم يعد يهمهم الارتقاء إلى المناصب السياسية وتولي المهام العسكرية وإنما أصبح اهتمامهم مركزا أساسا على تنمية ثرواتهم وتنشيط تجارتهم ولهذا فشلوا في التعبير عن طموحاتهم وطموحات الشعب وإيصال صوتهم إلى الحكام باعتبارهم طبقة وسطى تقرب الحكام من المحكوم[xiv].

٢– طبقة الحضر:

لقد كانت طبقة الحضر في أواخر العهد العثماني في الجزائر فئة ذات فعالية اجتماعي ويطلق لقب الحضر على السكان القاطنين في المدن منذ الفترة الإسلامية وما تقدم إليهم من طائفة الأندلسية وكانوا يستغلون في الحرف والتجارة والأعمال الإدارية، ورغم دور هذه الفئة الاقتصادي والاجتماعي إلا أنها كانت محرومة من

التطلع السياسي أن احتكار العثمانيين للسلطة منعها من ذلك(xv)، ومن أهم العناصر المشكلة لهذه الفئة: **الأشراف، الأندلسيين.**

أ- الأشراف

تمثل فئة قليلة العدد وهم الذين ينتسبون إلى آل البيت كانوا يتمتعون بمكانة اجتماعية ودينية وسياسية حيث كانوا يحكمون في النزاعات بين الأهالي وأصحاب السلطة ويحمون المهاجرون والضعفاء من الناس فلذلك تمتعوا باحترام كبير[xvi]، وهم أحسن وضعية عن غيرهم من الأهالي، حيث أنهم معفيين من الضرائب كما تقلدوا مناصب القضاء والإفتاء والتعليم وغيرها من المقاليد الهامة مكنتهم من اكتساب مكانة مرموقة في المجتمع[xvii].

ب- الأندلسيين

عرفت الجزائر خلال العهد العثماني هجرة أندلسية واسعة وتتمثل هذه الفئة من الذين طردهم المسيحيون من اسبانيا خلال القرن ١٦م وتوافدوا على الجزائر عن طريق مرسيليا وموانئ فرنسية أخرى[xviii]، كما يطلق عليهم كذلك اسم الموريسكيون ولم يكن بإمكانهم الالتحاق بالجيش أو الوظائف العليا لذلك انتهجوا عددا من الصناعات الأخرى مثل صناعة البارود والخزف[xix].

ورغم أن أغلب الأندلسيين كانوا يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة ويرتقبون الوقت الذين يتمكنون فيه من العودة إلى مواطنهم الأصلية إلا أن للتأثير الأندلسي في المدن كان عميقا جدا ويمس مختلف أوجه الحياة وذلك لكونهم أكثر ثقافة وتطورا ونشاطا من باقي الجماعات الحضارية الأخرى[xx]، وفقد أصلحوا الأراضي الزراعية وأنشئوا مصانع للنجارة والحدادة كما تولوا وظائف السلك التعليمي والقضائي وظهر منهم الفقهاء والعلماء[xxi].

ولقد حرم على هؤلاء الأندلسيين مثلهم مثل الجزائريين والكراغلة من الاشتراك في الشؤون العامة باجمعها وأعفوا من الخدمة العسكرية فلم يبدوا أي مقاومة للحكم

التركي وقنع أغلبهم من نصيبهم من غنائم القرصنة ومن الحذف والصناعات المختلفة[xxii].

ولم تقتصر هجرات الأندلسيين على مدينة الجزائر فقط بل شملت حتى مدن أخرى مثل: شرشال، البليدة...[xxiii] ، ومن أشهر العائلات الأندلسية التي سكنت الجزائر واشتغل أفرادها بالتجارة والصناعة[xxiv].

٣- جماعة البرانية:

أو ما يصطلح عليهم بالوافدون أي العناصر المحلية الوافدة إليها من مختلف الأقاليم المجاورة، إليها بغرض البحث عن العمل لكسب لقمة العيش ومن أهم الفئات الوافدة على المدن الإقامة والعمل نذكر:

أ-جماعة بني ميزاب:

ينتسب إليها السكان المنحدرون من غرداية وبني يزقن وبريان بالإضافة إلى سكان بني ميزاب ومناطق الشعابنة وورقلة وهم من أتباع المذهب الإباضي(xxv).

ب- جماعة البساكرة:

تتكون من أهالي مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتغرت الذين قدموا إلى المدن الكبرى طلبا للعيش وأوكل لهم ببعض المهن المتواضعة والأعمال الشاقة كإحضار المياه إلى المنازل، كما كان البسكريون يصنعون من صوف الأغنام أغطية رفيعة ويرسلونها إلى الجزائر وتونس ليتسنوا في مقابلها مبالغ مالية[xxvi]، ويتولى شؤون جماعة البساكرة أمين يعرف لدى العامة بالبسكري سيدنا[xxvii].

ت- الجماعة الجيجلية:

إعتاد أهالي مدينة جيجل ونواحيها الهجرة إلى مدينة الجزائر، وذلك للعلاقة الخاصة التي كانت تربطهم بالأتراك منذ استقرار الأخوين بربروس ومن معهم من

الأتراك بجيجل وتدعمت مكانتهم لدى الدايات مما مكنهم من الحصول على ثروات وإمتلاك المخابز والمنازل[xxviii].

ث- **جماعة الزنوج:** أصلهم من الأقطار السودانة يستخدمونهم في الدور وكانوا يحملون على الحمير البضائع والأثاث ومواد البناء كالرمل والحجر والخشب، وقد كان التجار من الإفرنج يسكنون بالجزائر ولهم دكاكين للبيع والشراء[xxix].

ج- **جماعة الدخلاء:**

ح- **جماعة اليهود** : تكونت فئة اليهود بالجزائر من ثلاث مجموعات:

- المستقرة بالبلاد منذ القدم أو من أتى إليها من إسبانيا أو طائفة يهودية ذات الأصل الأندلسي، حيث أقام اليهود أهم المدن والمراكز التجارية مثل عنابة وجيجل وشرشال والجزائر وقوراية وغيرها، وذلك لطبيعتهم الميالة إلى التجارة أكثر من أي نشاط آخر(xxx) ، منح اليهود الذين اعتنقوا الإسلام خلال الفترة العثمانية لنوع من العرف عرف باسم الذمة يجدد باستمرار، والذي ينمح بموجب الجالية المسلمة المأوى والحماية لأعضاء الديانات السماوية الأخرى إلا أن سيطرة اليهود على أهم المدن وعلى التجارة والمال مستخدمين في ذلك الرشوة بينهم وبين مجموعة من أمناء السوق وبعض المؤولين أدت إلى سوء العلاقة بينهم وبين الآهالي(xxxi).
- **المسيحيون:**اغلبهم من الإسبان والبربر غالبين الإيطاليين والأمان، عددهم قليل بمدينة الجزائر، وهم عادة ما يخطون التي تكون في حالة سلم مع الداي.

ثانيا : سكان الريف

يؤلف سكان الأرياف غالبية سكان الإيالة الجزائرية إذ كانت تزيد نسبتهم العددية على ٩٠% من مجموع السكان، ويمكن تصنيفهم حسب صلتهم بالحكام وعلاقتهم ببعضهم البعض وطريقة عيشهم إلى:

١-قبائل المخزن:

هي مجموعات سكانية لها صبغة فلاحية وعسكرية وحتى إدارية لما تقوم به من أعمال وتؤديه من أدوار، وهي لا تعود في أصولها إلى نسب واحد أو أصل مشترك بل هي في الواقع تجمعات سكانية تعميرية ذات تكوين اصطناعي فمنهم العبيد والكراغلة وعرب الصحراء وسكان الهضاب العليا والجبال ويمكن القول بأنها شكلت حلقة وصل بين الأهالي في الأرياف والحكم في المدينة، ومن المهام العسكرية التي كلفت بهذا هذه القبائل هي استخلاص الضرائب وإيقاع العقاب بالممتنعين والمعادين لسلطة البايلك وحواسه الأبراج والحصون والخوانق الجبلية والممرات الصعبة. [xxxii]

تمركزت القبائل المخزنية بصفة خاصة في الأراضي الزراعية وفي الأماكن التي كانت تقام بها الأسواق الأسبوعية، وفي أهم الطرقات والأماكن التي توجد بها المنشآت الإستراتيجية مثل: الجسر، أما بالنسبة لدائرة وهران فقد تمركزت قبائل المخزن في خمسة أعراش جالية الدوائر والزمالة والغرابة. [xxxiii]

٢-قبائل الرعية:

هي القبائل الخاضعة مباشرة للأتراك والمعرضة لصفوف الضغط والاستغلال والإكراه والقسوة من طرف رجال البايلك وفرسان المخزن، فاستخلصت منها الضرائب الثقيلة وأرغمت على بيع محاصيلها الزراعية بأسعار زهيدة، ومنع عنها الاتصال بالقائل المعادية البايلك و الممتنعة عن نفوذه، كما حضر عنها شراء البنادق الكبيرة[xxxiv]، كما أنها لم تكن تحظ بأي امتياز منم السلطة التركية فقد كانت تدفع الضريبة مما جعل وضعيتها أسوأ من وضعية تلك القبائل التي لم تكن تخضع للسلطة المركزية. [xxxv]

٣-القبائل الممتنعة:

هي القبائل التي كانت بعيدة عن نفوذ الحكام وغير معترفة بسلطتهم وهي تتألف في أغلبها من القبائل التي كانت تعيش في المناطق الجبلية الحصينة كالبابور وجرجرة والونشريس وطرارة وشمال قسنطينة و الأوراس، أو التي كانت تجوب جهات الهضاب الوهرانيين ومناطق الأطلس الصحراوي[xxxvi] أطلق على هذه الجماعات السكانية اسم القبائل شبه مستقلة لأنها كانت تقطن جبهات خارجة عن سلطة ممثلي البايلك، فكانت أكثر استقلالية من غيرها من القبائل الخاضعة والتي كانت تدفع الضرائب[xxxvii].

III. علاقة السلطة الحاكمة بالسكان

لقد تحكمت العلاقة بين السكان في المدن والريف وبين السلطة المتحكمة في الجهاز الإداري فالتعامل مع المدن كان يقوم على مبدأ التفاضل في الامتيازات حيث تحتل طائفة التركية المكانة المفضلة وعلى الالتزام بالخدمات التي كان يقع أغلبها على كامل الإعراب (البرانية، والأسرى والعبيد) بينها الخضر والأندلسيون واليهود كانوا يخضعون ببعض الامتيازات مقابل بعض المهام الموكلة إليهم. [xxxviii]

أما في الريف فقد كانت العلاقة في أساسها تعتمد على التحكم عشائر المخزن وتبعية جماعات الرعية وعلى التعامل يخضع للظروف مع القبائل الممتنعة أو المتعاونة سواء عن طريق تبادل المنافع أو محاولة قرض التبعية بالقوة هذا ومرد الاختلاف في هذه العلاقات بين السلطة والسكان يعود إلى تصرف المؤسسة العسكرية وعلى تطبيق الإجراءات الإدارية التي يس في مقدورها الاستغناء عن العنصر التركي الذي يقوم عليه النظام الحكم في أساسه كما ليس في استطاعتها عدم الالتحاء إلى فرسان المخزن لكونهم حلقة الوصل والأداة الفعالة لبسط نفوذ الحكام على للرعية.

ونتيجة لتعامل السلطة مع السكان بهذه الطريقة وعجز هؤلاء عن دفع الضرائب الثقيلة التجئوا إلى العديد من الثورات.

الخلاصة :

في ختام هذه المحاضرة يمكن أن **نستخلص** ما يلي:

- أن الأوضاع الاجتماعية في الجزائر لقد عرفت تغييرهما المدينة والريف حيث كانت تتمتع بتنوع الفئات السكانية التي يتشكل منها المجتمع الجزائري.
- عرفت تقسيم حسب كل طبقة ومكانتها في المجتمع بحيث أن العلاقات بين مختلف الفئات كانت تحكمها المصالح المشتركة والتي كانت مبنية على أساس الأهداف المادية والمكانة السياسية بالدرجة الأولى خاصة في المدن أما في الريف فكان أكثر تجانسا من حيث تركيبته البشرية.